أبوحيان التوحيدي كان له الحق في إحراق كتبه

أحمد سعيد نجم
كاتب فلسطيني

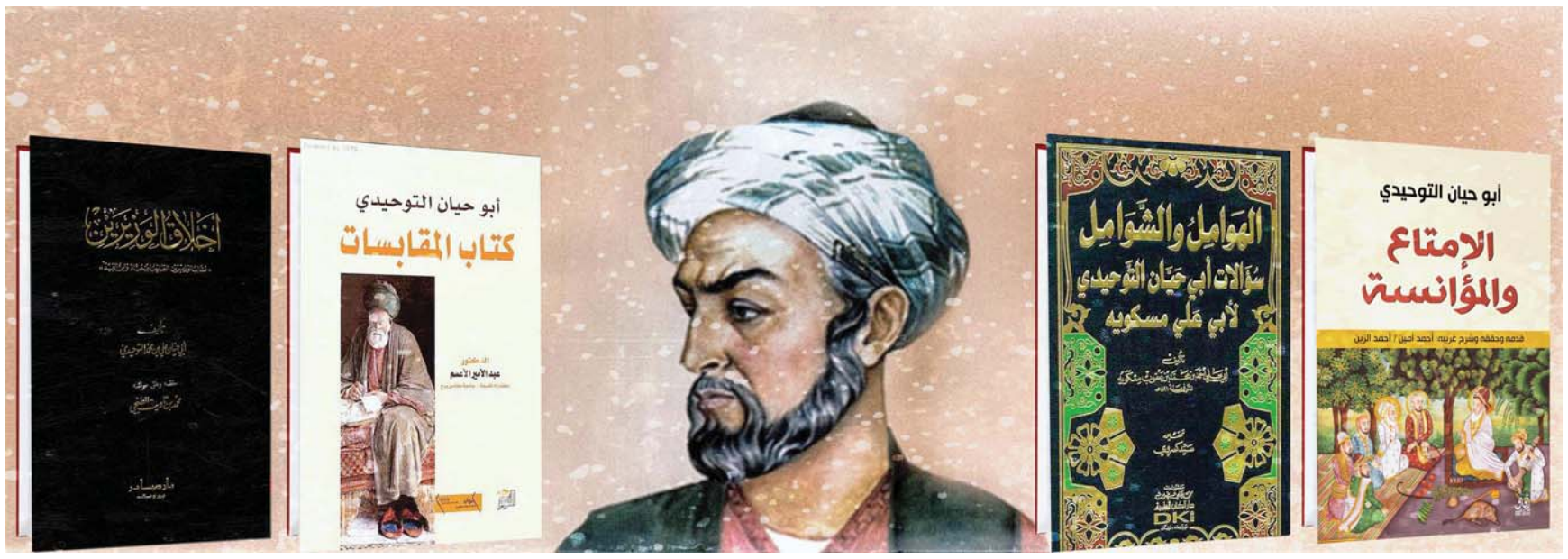

من المؤكد أن أبا حيان التوحيدي قد يصاب بدهشة بالغة لو أتيح له أن يعرف بأن لنا نحن نزلاء الألفية الثالثة تقييما مخالفا لتقييمه الشخصي للقرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي؛ القرن الذي عاش ومات فيه.

وبالنسبة إلينا فقد بلغت الساحة الثقافية في الإسلام أوجها في ذلك القرن. ففيه كما يقول المفكر الجزائري المتميز محمد أركون في كتاب "الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد"، "اتسعت هذه الساحة إلى أبعد مدى ممكن، سواء من حيث المعارف والعلوم الممارسة فيها، أو من حيث المشاكل التي طرحت للنقاش، أو من حيث الأفكار التي تم تداولها من المثقفين" (محمد أركون "الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد" ترجمة وتعليق: هاشم صالح، لافوميك، الجزائر).

وهذا الرأي الذي أكده من قبل أركون ومن بعده كثيرون صائب تماما، وهو رأي أغلبنا، غير أنه يأتي بعد مرور أكثر من ألف عام على وقائع العيش اليومي القاسي الذي مارسه الناس أيامذاك. وأما بالنسبة إلى أبي حيان فالوقائع الشرسة لحياته، وهي وقائع لم تعرف الشفقة، وتجهل شيئا يدعى الرحمة، وهي بالكلية لم تسمع بما سيدعوه البشر لاحقا حقوق الإنسان، فإنها ألجأته في وصفه لعصره إلى استخدام أبشع النعوت.

من دلالة الانحطاط أن كتب التوحيدي الناجية من الحرق اتهمت بالشؤم فوضعت في قماقم مخصصة لحبس الأعمال الملعونة

فتلك الأيام كانت في ما يخصه، ويخص الملايين من البشر الذين شاطروه العيش المضطرب، أيام "العيش النكد، والشؤم الشامل، والبلاء المحيط، والغلاء المتصل، والدرهم العزيز، والمكسب الدنس، والخوف الغالب (...) ورزوح الحال، وفقد النصر، وعدم القوت، وسوء الجزع، وضعف التوكل (...) نعم، ومع الأدب المدخول، واللسان المتلجلج، والعلم القليل، والبيان النزر، والخوف المانع" (أبوحيان التوحيدي "أخلاق الوزيرين" تحقيق محمد بن تاويت الطنجي. طبعة دار صادر. بيروت. 1992 مصورة عن طبعة المجمع العلمي العربي بدمشق).

وكانت أياما قاسية على هذا الكاتب الكبير، أصفى مرايا عصره، عصر الاضطراب الاجتماعي والتشرذم السياسي، الكاتب الذي وصفه المستشرق الألماني آدم متز في كتابه "الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري" بالقول "ربما كان أعظم كتّاب النثر العربي على الإطلاق" (آدم متز "الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري" ترجمة محمد عبدالهادي أبوريدة. لجنة التأليف والنشر، القاهرة).

فهذا الذي لعله أعظم كاتب في اللغة العربية اضطر في أواخر سني عمره بعد الشهرة والمعرفة "إلى أكل الخضر في الصحراء، وإلى التكفف عند الخاصة والعامة (...) وإن زمانا أحوج مثلي إلى ما بلغك، قال أبوحيان مخاطبا القاضي أبوسهل الذي لامه على إحراق كتبه، لزمان تدمع له العين حزنا وأسى" (ياقوت الحموي، معجم الأدباء، دار المأمون بالقاهرة. الطبعة الأخيرة).

ويأس أبي حيان من أبناء عصره ومن أبناء العصور الذين سوف يأتون بعد أبناء عصره، دفعه عملا بالمثل القائل "بيدي لا بيد عمرو" إلى إحراق كتبه. فقد أحرقها كي لا يمكّن أحدا من التلاعب بها "ويدنسون عرضي إذا نظروا فيها".

ولسوف يتنفس، وهو ينظر إلى النيران تلتهم تصانيفه حرفا حرفا، ذات الأنسام الشافية التي يستشعرها كل من ينفضون العلائق والأغلال الأرضية عن أرواحهم، وهي ذات الأنسام التي سبق لأحد أسلافه وهو داود الطائي أن أحسها بعد أن ألقى كتبه في البحر، وقال في وداعها "نعم الدليل كنت، والوقوف مع الدليل بعد الوصول عناء وذهول، وبلاء وخمول".

ولقد صدق ظن أبي حيان في المقبل من الأزمان. فالعصور اللاحقة لعصره قامت بالتخلص من كتبه بطريقة أخرى، وذلك من خلال إقصائها، وإخفائها داخل قماقم مخصصة لكل ما هو مشؤوم ومحظور ومبعد عن أنظار العامة والخاصة.

ومثل ذلك الإقصاء المريب لأبي حيان ولمؤلفاته سوف يثير دهشة المؤلف الموسوعي ياقوت الحموي (توفي سنة 626 هجرية/ 1229 م) الذي كتب بعد نحو قرنين تقريبا على وفاة التوحيدي. فبعد أن قدم ياقوت ترجمة هي الأوفى لأبي حيان في المراجع العربية القديمة في كتابه "معجم الأدباء"، واستهلها بعبارات يمكن أن توصف بلغة عصرنا بأنها عبارات أيقونية "فيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة، وفصاحة ومكنة، كثير التحصيل للعلوم في كل فن حفظه، واسع الدراية والرواية". فمن بعد هذا التوصيف الأيقوني ثبت ياقوت بشيء من الحيرة استغرابه التالي "ولم أر أحدا من أهل العلم ذكره في كتاب، ولا دمجه في خطاب، وهذا من العجب العجاب".

وذلك التوصيف من الحموي لأبي حيان جاء ونحن ما نزال في أول طريق التقهقر الحضاري. وأما بعد أن نتلوى مع القرون المديدة في تلويها المتقهقر فسوف نصل إلى القرن الثامن الهجري. وفيه سيتم مع الإمام الذهبي (748 هجرية/ 1348 م) استبدال الأيقونات الناصعة التي طوقت عنق أبي حيان بأخرى شديدة القتامة. وسوف تبدأ ترجمته في المؤلف الموسوعي الكبير "سير أعلام النبلاء" على النحو التالي "الضال الملحد، أبوحيان، علي بن محمد بن العباس، البغدادي، صاحب التصانيف الأدبية والفلسفية" (الإمام شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي. مؤسسة الرسالة. بيروت 1996).

وبالرغم من هذا الهجوم الماحق من الذهبي على أبي حيان التوحيدي فإنه مع ذلك لن يعدم له نصيرا في شخص الإمام تاج الدين السبكي (771 هجرية/ 1370 م). ومما جاء في كتابه "طبقات الشافعية الكبرى" دفاعا عن أبي حيان "ولم يثبت عندي إلى الآن من حال أبي حيان ما يوجب الوقيعة فيه، ووقفت على كثير من كلامه فلم أجد إلا ما يدل على أنه كان قوي النفس، مزدريا بأهل عصره، ولا يوجب هذا القدر أن ينال منه هذا النيل" (الإمام تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبدالفتاح محمد الحلو. دار إحياء الكتب العربية. القاهرة 1964).

أجل، لقد قدم الإمام السبكي تبرئة وازنة لأبي حيان وتراثه الكتابي، غير أن تلك التبرئة ظلت صرخة في واد مهجور. ففي القرون اللاحقة على القرن الرابع الهجري اختلف كامل إيقاع الحضارة العربية الاسلامية. وفي إيقاعها الجديد لم يعد ممكنا لا تأليف ولا حتى قراءة كتب مثل "الإمتاع والمؤانسة" و"المقابسات" و"الهوامل والشوامل" و"أخلاق الوزيرين".

والسبب في ذلك في غاية البساطة: فحتى تكتب مثل تلك الكتب، وحتى تجد من يقرأها، ينبغي أن يوجد على أرض الواقع رجالات من أمثال أبي سليمان السجستاني، وأبي سعيد السيرافي، ومسكويه، ويحيى بن عدي، والمتنبي، وابن جني، وتطول القائمة.

وهكذا ففي القرون التي تلت القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، القرن الذي لعنه أبوحيان وأحرق كتبه احتجاجا على العيش المذل فيه، لا أبطال مسرحية الإبداع الفكري ممن أخذوا الساحة الثقافية في الإسلام إلى أوسع مدى ممكن لها عادوا موجودين، ولا خشبة المسرح، أي المجالس التي أقامها رعاة الأدب والعلوم لاحتضان حوارات وشغب كافة أصحاب المحابر ظلت قائمة مثلما كانت؛ وإن صدف في العصور التالية على عصر أبي حيان وعثر على من يتفلسف، أو يتكلم، أو يتهرطق بحسب توصيف الفقهاء لأي تفكر عميق في العقائد وفي الأشياء وما يمارسه كل البشر، فقد كان في انتظاره القتل أو التشريد، كما جرى مع المتصوف السهروردي القتيل، مطلع الدولة الأيوبية.

التوحيدي عرف أن الانحطاط سيصيب كتبه باللعنة

الدرس نفسه ننساه لكنه لا ينسانا.. ماذا بعد الخروج من الاستبداد

سعيد ناشيد
كاتب مغربي

من "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" إلى "طبائع المعذبين ومصارع الموهومين"، من عنوان رسالة عبدالرحمن الكواكبي إلى افتتاحية نوري الجراح لمجلة الجديد في عدد أغسطس الماضي، إنها مسافة مئة عام من الهزائم والنكسات والخيبات.

الدرس نفسه ننساه لكنه لا ينسانا: لا نخرج من الاستبداد إلا لكي نقع في أتون الفتنة، ولا نخرج من جحيم الفتنة إلا لكي نسلم رقابنا لاستبداد ننحته بسكاكين حادة، ثم نغمدها في انتظار أن تحين ساعة الفتنة التي لا تبقي ولا تذر، قبل أن نلقي باللائمة على المتآمرين علينا، وكل ذلك ضمن حلقة مفرغة من خروج يعيدنا مرة بعد كل مرة إلى المربع الأول، إلى حظيرة القطيع، حيث مجمل خياراتنا أن نختار من يذبحنا. طبيعي والحال كذلك أن تتعامل كثير من العقول مع التدخل التركي والإيراني في المنطقة العربية بمنطق أن الاحتلال مثل الصدقة في الأقربين أولى.

حين أسمع تعقيبا على النحو التالي، أن تستعمرنا إيران أو تركيا لهو أزكى لنا من أن تستعمرنا فرنسا أو الولايات المتحدة، أشعر بأن سؤال الحرية بعيد كل البعد عنا، وبأن سؤالنا الأوحد الذي لا نطرح سواه هو لمن نسلم أعناقنا بعد أن سلمنا عقولنا؟

ذلك هو الحال كما كان ولا يزال إلى الآن، منذ الفتنة الكبرى وما قبلها إلى غاية الحروب الأهلية الجارية اليوم وما بعدها. كأن قدر التاريخ الهجري أن يكون خلدونيا محكوما بالدوائر التي تدور مثل الرحى بين جحيم الفتنة وجمر الاستبداد. أين المعضلة؟

تكمن المعضلة في أن كل واحد منا يحمل أصناما وألغاما داخل كينونته، وهي التي تحدد له سلفا حدود الطاعة والحرية، وترسم له الأفق الممكن وغير الممكن في اللاهوت والسياسة. وحين يقول الخطاب القرآني "لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" فلأن أفق التغيير الممكن مرسوم داخل الأذهان قبل الأعيان.

قبل أن تندلع الحرب الأهلية داخل المجتمع فإنها تندلع داخل كل ذات على حدة، حين يجد المسلم نفسه في حرب أهلية مع عقله، حواسه، جسده، ميوله، أسئلته، خياله.. إلخ، يسهل عليه الدخول في حرب أهلية مع الآخرين، كل الآخرين، مع الجميع.

من غير المؤكد أن الاستبداد سينهار قريبا، لكن المؤكد أن الثورات قد انهارت بالفعل، بل لعلها لم تكن في أساسها سوى طبعات متأخرة لـ"الثورة المغدورة"، غير أن المتأخرين يعاقبهم التاريخ كما يقال، ثم إن كل ثورات التاريخ ليست سوى نسخ متكررة للثورة المغدورة، طالما لا تأتي النتائج وفق التوقعات، هي الحكاية نفسها على الدوام. فهل كنا نأمل في آمال مغايرة هذه المرة؟

قدرنا هو العود إلى البدء، غير أن العودة يجب أن تكون كما ينبغي هذه المرة: البدء أبداء عديدة، وهذا أحدها: اقرأ. ألسنا أمة اقرأ؟

التعليم، الثقافة، التربية، التنوير، هي شغلنا الحقيقي الذي انتبه إليه الكواكبي قبل أن نغفله أو نغفل عنه في غمرة أوهام السياسة. وأوهام السياسة لا حصر لها، من ضمنها الاعتقاد بأن السياسة بوسعها أن تحل كل مشاكل الحضارة والوجود والعقل والتاريخ وهلم جرا. وهذا مجرد هراء.

المسافة الزمنية بين عنوان الكواكبي "طبائع الاستبداد" وعنوان الجراح "طبائع المعذبين" تحتلها كثير من النظريات في الفلسفة السياسية يمكن استحضارها.

مثلا: وفق مقاربة ميشيل فوكو لمفهوم السلطة، ليست السلطة جوهرا متعاليا، بل روح تسري فينا جميعا وتنتشر في كل تفاصيلنا اليومية، ثم يملك كل واحد منا نصيبه من التواطؤ فيها، حتى وإن كانت تسحقه في الأول أو في الأخير. لا تنحصر السلطة في مكان محدد، ولا تهبط علينا من فوق، لكنها تنتشر أفقيا وعموديا وتسري يوميا في كل المسارات والساحات والمؤسسات. لذلك ليس سلوك الحكام سوى قمة ظاهرة من هرم عريض في القعر، يمتد في الأعماق ليشمل كل التفاصيل المرئية وغير المرئية للمجتمع: أنظمة الرموز والدلالات، نمط الإنتاج الاقتصادي، نمط إنتاج الحقيقة، اللاوعي الجمعي، بنية الأسرة.. إلخ. هنا يكمن مغزى مقولة تشرشل "كل شعب في العالم ينال الحكومة التي يستحقها". وهي مقولة تشبه حديثا منسوبا إلى رسول الإسلام "كما تكونوا يولى عليكم".

المهمة الأكثر ثورية في التاريخ أن نعلم الناس كيف يفكرون وكيف يختبرون بأنفسهم إمكانيات أخرى من التفكير

هل معنى ذلك أن الإجابة عن السؤال "ما العمل" هي أن لا شيء ممكنا؟

يرى ميشيل فوكو أننا ليس بوسعنا أن نفعل الكثير، لكن لا بد من أن نفعل شيئا ما، إذ هناك دوما ما يمكن فعله. وطالما السياسة فن الممكن كما يرى لينين، فما هو الممكن الآن؟

المعطى الأساسي أن النظم السياسية لا تتغير جراء تغيير الحكام، أو تغيير المسؤولين أو طردهم – حتى ولو كان طرد بعض المسؤولين يحمل بعض الإنصاف أحيانا – لكن يتغير النظام السياسي جراء تغيير تلك الروح التي تسري في كل الحيثيات والجزئيات التي نصادفها يوميا. لعلها مهمة شاقة على الحالمين، محبطة للناقمين، طالما أنها تراهن على تغيير العقول والأذواق، رويدا رويدا، وبعيدا كل البعد عن عقيدة الخلاص، لكنها في الحساب الأخير تظل المهمة الثورية الفعلية بكل المقاييس، دونها ستغدو الممارسات الثورية مجرد حملات دونكيشوتية، أو حفلات تنكرية، أو دوران في حلقات مفرغة تعيد إنتاج نفس التسلط بأقنعة مغايرة.

إن كان منتظرا من المثقف أن يكون شخصا مزعجا للسلطة كما يقال، فإن التعبير الأدق أن يكون مزعجا لروح السلطة التي تسري في كل التفاصيل، من القوانين الجنائية إلى تقاليد الزواج، ومن مؤسسات الدولة إلى نمط اللباس، ومن نمط الإنتاج إلى طريقة تناول الطعام. دعنا نقولها بوضوح: جبهتنا القادمة، وهي الجبهة الباقية أيضا، تتعلق بإصلاح العقل والحضارة والكينونة.

المهمة الأكثر ثورية في التاريخ أن نعلم الناس كيف يفكرون، وكيف يختبرون بأنفسهم إمكانيات أخرى من التفكير وبما يقلص من الانفعالات السلبية التي هي شرارات الفتن كلها، ذلك أن تحسين شروط التفكير لدى الناس من شأنه أن يقود عمليا إلى تحسين السلوك المدني، وتحسين شروط الحياة، بعيدا عن خرافة عصر ذهبي قادم في الأفق، أو عائد من جديد، بعيدا كل البعد عن أساطير الخلاص.

ليس الثوري من يعلم الناس الشؤم والشكوى والتذمر وما إلى ذلك من أمراض الروح، لكنه من يعلمهم مهارات الحياة، ويؤجج إرادة النمو باستمرار سواء في ذاته أم في سائر الذوات التي تقاسمه الحراك، وذلك بالعمل على انتقاء الصياغة المناسبة للأسلوب الحكيم، كما ليست مهمته أن يبشر الناس بوعود عظيمة مثلما يفعل الأنبياء وأشباههم.

الثوري ليس من يعلم الناس الشؤم والشكوى والتذمر (لوحة للفنان سليمان جوني)

ص10 وص11 تنشران كاملتين على الموقع الإلكتروني بالاتفاق مع مجلة «الجديد» الثقافية اللندنية